

التوحيد في العبادة ... إشكالية المفهوم والمصداق -4

إن الطاعة ليست حداً منطقياً للعبادة ، وبمعنى آخر : لا يمكن اعتبار أن الطاعة لوحدها عبادة وإلا لم يبق أحد على وجه الأرض من المسلمين إلا وهو خارج عن الإسلام ، فنحن نطيع آباءنا ، وأمهاتنا وإخواننا الكبار ، وساداتنا ، وكبراءنا ، وحكامنا ، وقاداتنا في العسكر أو الوظائف المختلفة وهذه الطاعة تكون عبادة لهم ، ولكن القرآن لا يفترض هذا فقد أمرنا [الطاعة رسوله مقرونة بطاعته كما في آيات عديدة منها :

قوله تعالى: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَأَنِيعُوا لَهُمْ شَأْنَهُمُ فَإِذَا دَعَا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ مَلَأُوا مَقْعَدَهُ كَبَدًا وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِنِّي لَهُ لَشَاقِدٌ } [آل عمران: ٣٢]

وقوله تعالى: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَطِيعُوا أَهْلَ الْبَيْتِ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَأَنِيعُوا لَهُمْ شَأْنَهُمُ فَإِذَا دَعَا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ مَلَأُوا مَقْعَدَهُ كَبَدًا وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِنِّي لَهُ لَشَاقِدٌ } [المائدة: ٩٢]

{وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَطِيعُوا أَهْلَ الْبَيْتِ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَأَنِيعُوا لَهُمْ شَأْنَهُمُ فَإِذَا دَعَا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ مَلَأُوا مَقْعَدَهُ كَبَدًا وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِنِّي لَهُ لَشَاقِدٌ } [الأنفال: ٤٦]

{قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَطِيعُوا أَهْلَ الْبَيْتِ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَأَنِيعُوا لَهُمْ شَأْنَهُمُ فَإِذَا دَعَا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ مَلَأُوا مَقْعَدَهُ كَبَدًا وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِنِّي لَهُ لَشَاقِدٌ } [النور: ٥٤]

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَطِيعُوا أَهْلَ الْبَيْتِ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَأَنِيعُوا لَهُمْ شَأْنَهُمُ فَإِذَا دَعَا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ مَلَأُوا مَقْعَدَهُ كَبَدًا وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِنِّي لَهُ لَشَاقِدٌ } [الأنفال: ٢٠]

بل وجاء الأمر من [الطاعة الرسول بخصوصه كما في قوله تعالى : {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [النور: ٥٦]

ولم تكن الطاعة لرسول [فقط بل لكل ولي أمر ، ومن هو ولي الأمر ؟

كل بحسبه ، فمن يعتقد أن ولاة الأمر هم الحكام كما يراه إخواننا السنة فإنه يجب طاعتهم ، ومن يراه الأئمة كما هم الشيعة يجب طاعتهم ، وفي كلا الفرضين يجب طاعة غير الرسول ، فهل أن طاعة ولاة الأمر عبادة لهم ؟ كما في قوله تعالى:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ - وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ - وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ° فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ - وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } النساء: ٥٩

وقد جاء في القرآن الكثير من الآيات التي فيها أمر للناس باتباع أشخاص كما في قصة هارون وطلبه من قومه أن يطيعوه :

{وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي } طه: ٩٠

وفي قصة عيسى عليه السلام قوله تعالى:

{إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قُمْ وَرَأْفِعُكَ إِلَيَّ ° وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ° وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا ° إِلَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ° ثُمَّ إِنِّي مَرَّجِعُكُمْ ° فَأَذْجِعُكُمُ فِي مَآبِدِكُمْ ° فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } آل عمران: ٥٥

اتبعوك يعني أطاعوك ونهجوا منهجك وطريقتك ولا يكون ذلك إلا بطاعتك .

وفي قصة إبراهيم إن أولى الناس به للذين اتبعوه بإطاعته كما في قوله تعالى :

{إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِالْبِرِّهِمْ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ° وَهَذَا الذِّي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ° وَهُوَ عَلَى اللَّهِ حَافِظٌ } آل عمران: ٦٨ والآيات في ذلك كثيرة .

وقد ورد في مقابل ذلك ما يدل على أن هناك طاعة منهي عنها كطاعة الشيطان كما في قوله تعالى :

{أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ} (يس/60-61). لا تعبدوا الشيطان بمعنى لا تطيعوه .

{وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْهِكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا فَلَاحًا} □ النساء: ٨٣

وطاعة الكفار والمنافقين كما في قوله تعالى زجراً لنبيه {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} □ الأحزاب: ١

وقوله تعالى: {فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ وَكَافُورًا} □ الانسان: ٢٤

وطاعة المخلوق في معصية الخالق ولو كان الأبوين اللذَيْنِ دعا القرآن إلى برهما:

{وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَالِيًا أَوْ سَفَلِيًا أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبِهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنْزَلَ إِلَيْنَا فِي هَذِهِ} □ لقمان: ١٥

وهناك طاعة لم يرد فيها أمر أو نهي فتكون جائزة وهذا ما تعارف عليه المسلمون ، من طاعة الرئيس والمدير في الدوائر الحكومية في مختلف الوظائف ولا يمكن لأحد ادعاء أن ذلك مما هو خارج الشرعية ، وهذه الطاعة مع أنها لم ترد بصورتها الاجتماعية في القرآن إلا أنه لا قائل بأنها تعدّ عبادة للمطاع من قبل المطيع .

ومعنى طاعة □ أن تمتثل أوامر ونواهيه، فهل أن جميع المسلمين السنة أو الشيعة اليوم يطيعون كل أوامر □ ونواهيه بحيث يصدق عليهم أنهم عبيد □ أو أن كثيراً منهم يطيعون أشخاصاً وأفراداً علاوة على الشيطان، لذا تجد الكثير من المسلمين اليوم ومن جميع الطوائف يسرحون ويرتعون في المهالك والملذات وهؤلاء خرجوا قطعاً عن طاعة □ ، فهل نقول عنهم أنهم عبدة لشهواتهم كما قال تعالى {أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهًا هَوَاهُ أُوْحَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكَافِيًا} □ الفرقان: ٤٣ وقوله أيضاً {أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهًا هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ

عِلْمٍ وَخَدَمَ عِلْمٍ سَمِعَهُ وَفَلَّاحِيهِ وَجَعَلَ عِلْمٍ بِصَرِّهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ
مِنْ بَعْدِ اللَّسَّةِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ { الجاثية: ٢٣ }

والخلاصة : أن الطاعة لوحدها لا تعد حداً منطقياً للعبادة وإلا لو اعتبرناها كذلك فإن الجميع لن
يكون عابداً .